سحاب الكلام

د. فهد العرابي الحارثي

الفصحى للعلم.. والعامية للطرب

عوامّ الاندلس لم يكونوا الوحيدين في النظم بلغتهم الحضرية، اي العامية التي لا يلتزمون فيها اعرابا، فابن خلدون الذي اوردنا بعض اقواله في مقالة الامس يرى ان الموشح والدوبيت كان من شعر عامة بغداد ايضا، وبغداد هذه كما يعلم الجميع هي، لقرون مديدة، عاصمة شعر العرب كله، وحاضرة ثقافة العرب كلها ايضا، ومع هذا فلم يكن لها من مضر من العاميات او من نتاجاتها الثقافية الخاصة، ومنها الشعر.

وظهور الشعر العامي، او على الاصح استفحاله، كان بالذات في اواخر القرن الاول للهجرة، كما يقول عبدالله الارياني وعبدالله الاغبري، وكان ذلك بعد ظهور الغناء وانتشاره. وهذه الفكرة بالتحديد تفضي بالباحثين (الارياني والاغبري) الى مالا يريد ان يعترف به الكثيرون اليوم، وهو ان الناس، في عمومهم، انما يشتد بهم الطرب عندما يكون الغناء في العامية، ولا قياس، في نظري، على قلة قليلة من الاغاني التي نجحت وكلماتها من الشعر الفصيح. ولهذا فان رواج العامية في القرن الاول الهجري انما اجبه ان عموم الناس كانوا لا يطربون للغناء في الشعر الفصيح، وخاصة عامة الشام. وصاحب الاغاني يروي طرب الناس للشعر في العامية.

والى جانب ما في ذلك من استجابة تلقائية للواقع، وهي استجابة بعيدة عن المثاليات او التقعر، فان ذلك يتضمن وجها من وجوه التوقير والتسامي بالفصحى. وهي لن تكون لغة الناس اليومية لمجرد اننا نقرر ذلك في المقالات الصحفية، وقبلنا من عجزوا بالفعل عن ان يصلوا الى هذه الغاية على الرغم من النوايا الحسنة التي كانت تدفعهم بشدة نحو هذا الهدف. فالفصحى على هذا تظل لغة العلم والبحث، ولغة الثقافة في وجهها القومي النقي، ولغة تراث الامة الذي لا تقبل حياله باية مساومات او باية تنازلات، ولا يهمنا بعد ذلك ان تكون العامية هي لغة المعاش اليومي للناس، او ان تكون لغة الغناء والطرب، والعامية في هذه المجالات بالذات، وارجو ان لا يغضب منا احد، قد يوجد فيها نوع من الحرية، والطلاقة، والمرونة في بعض التعابير، اكثر مما يمكن ان تتوافر عليه الفصحى نفسها، ومن القائلين بهذا الراي الدكتور زكي مبارك، الذي يقول ايضا «والناس لا يلجاون الى العامية الا حين يرونها اقرب الى تصوير اغراضهم في بعض الاحيان» وهو يرى كذلك «ان العامية عنصر من اللغة الفصيحة دخل في حكم المبتذل بكثرة الاستعمال» وبغض النظر عن مدى الدقة في هذا التعبير للدكتور زكي مبارك، فهو يلتقي، بوجه ما، مع بعض ما قلناه ونقوله من ان عامياتنا لا تخلو من الفاظ وتعابير فصيحة، لا بل انها احيانا عندما نقوم اعرابها، قد تدخل في عداد الفصيح، وقد يفاجا الكثيرون لو استمعوا الى لهجات بعض القبائل في الجزيرة العربية، فبشيء قليل من الفحص والتقويم سنرى اننا امام لغة فصيحة. اما في الشعر الشعبي فهذا الامر يبدو اكثر يسرا، فبين شعرائنا العاميين، في القديم وفي الحديث، من يمكن ان ينتمي شعرهم الى الفصيح مع بعض التصرف في الوزن والاعراب. ثم ماذا في الامر لو اخذنا بالاتجاه المعاكس وقلنا انه قد دخل الى الفصحى، وسيدخل اليها بعض من معجم العامية، وهذا هو ما سنتحدث عنه غدا ان شاء الله.